

سلسلة المحاضرات الاخلاقية

(١)

من أين تبدأ حركة الاصلاح

٢٨ / ذي الحجة / ١٤٢٨

٨/ كانون الثاني / ٢٠٠٨



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نقف على أبواب شهر محرم الحرام، وذكرى شهادة الإمام
أبي عبد الله الحسين (ع)، وبهذا الخصوص كانت الكلمة
التي جعلها الإمام الحسين (ع) منطلقاً لحركته هي قوله (ع):
(أَلَا تَرَوْنَ إِلَى الْحَقِّ لَا يُعْمَلُ بِهِ وَالِى الْبَاطِلِ لَا يُتَّهَى
عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله، ألا وإنني لا أرى الموتَ
إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً).^١

^١ (بحار الانوار / ج ٤٠ / ص ٣٨١)



مرجعية الحق

ننطلق من هذا النص إلى حوار مطروح في السجال

الفكري المعاصر، وهو ان المرجعية لله أم للإنسان؟ ومن

أين يأخذ الإنسان قراراته، وسلوكه وتشريعاته؟

الفلسفة المعاصرة والحديثة اليوم الغالبة على العالم والتي

تسمى بـ(الفلسفة الحدائية)، تتطلق من فلسفة إسمها

(أصالة الإنسان) ومرجعيتها، وأنه على البشر الرجوع

لأنفسهم، ولا نعترف بشيء فوق الإنسان أو في موازاته،

وأن المرجع هو الإنسان فقط! وهذا هو ما يسمى

بمبدأ(النزعة الإنسانية)، وبـ(الفلسفة الذاتية)، و(مرجعية

الإنسان).



وفي مقابل هذا المبدأ تدعو فلسفة الأديان التوحيدية وعلى رأسها الإسلام إلى مبدأ (مرجعية الله)، الله هو المرجع في التشريع، وفي تحديد السلوك، وتحديد المواقف للإنسان، لكن حتى لا نجعل الله في مقابل الإنسان، فإن الأديان التوحيدية، والنظرية الإسلامية بالخصوص، تؤمن بأصالة الحق ومرجعيته، فما هو حق يفرض نفسه، وما هو باطل يجب أن يكون مرفوضاً سواء صدر من الإنسان أو من غيره، وسنجد حديث الإمام الحسين (ع) منطلقاً للوقوف عند مبدأ (أصالة الحق) حيث يقول (ع): (ألا ترون إلى الحق لا يُعملُ به والى الباطل لا يُنتهى عنه) وهذا اعتماد على نظرية (أصالة الحق) و(مرجعية الله)، الإمام



الحسين (ع) لا يريد ان يأمر بشيء غير ما يأمر به الإسلام
والأديان التوحيدية، والتي تقول للإنسان ليكن مقياسك هو
الحق، فما كان حقاً فخذ به وما كان باطلاً لا تأخذ به،
فالحق أعلى منك، والحقيقة الكبرى أعلى من الإنسان،
ويجب عليه ان يبحث عن الحقيقة الكبرى ويجب أن يبحث
عما هو الحق، وليس عما يريد أو لا يريد، أو يقتنع به أو
لا، أو يرغب أو لا يرغب به.

القرآن الكريم حينما يدعونا لعبادة الله يدعونا لذلك لأن الله
هو الحق {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ} ^٢ ، ولأنه الحق والحقيقة،
إذن يجب علينا أن نلتزم بالحقيقة.

هذا من روائع القرآن الكريم، ودقائقه، فالارتباط بالله تعالى
لأجل أنه هو الحق، ويجب الارتباط بالحق، وليس لأن الله
تعالى هو الرب الذي يريد أن يُعبد بل لأنه هو الحق ونحن
إنما نرتبط به لأجل ذلك، وهذه الفلسفة وهي فلسفة (مرجعية
الحق وأصالة الحق) تمتد آثارها إلى كل مفاصل حركة
الإنسان الفرد والمجتمع، وتتعلق منها كل التشريعات
والرؤى الإسلامية.

أما الحداثة فانها تقول للإنسان ليس لديك مرجع أعلى
منك، بل المرجع هو أنت، وهذا هو ما يسمى بـ(أصالة
الإنسان)، الإنسان هو الأصل، فيجب أن يعيش كما يشاء



ولا شيء فوقه. فلو أراد الإنسان إن يحوّل حياته إلى حياة حيوانية يقال له إفعل ذلك لأنك أنت المرجع في كل شيء.

بينما نظرية أصالة الحق و(مرجعية الحق) تقول هل يقبل الحق أن يحوّل الإنسان حياته الى حياة بهيمية أم لا؟ فالإنسان ليس هو المطلق الذي يحدّد القرار كما يشاء، بل الحق هو الذي يحدّد الموقف.

هناك مصدر أعلى للتشريع، والنظرية الإسلامية تقول أن الله هو المصدر الأعلى للتشريع، وعلى الإنسان أن يرتبط بالحق ومرجعيته وتشريعه.

هذا الإطار العريض يبين لنا الفلسفتين المتصارعتين بين مرجعية الإنسان ومرجعية الحق، ولكن الأداء الفاشل



للكنيسة في بعض المواقع، طرح هذه القضية بشكل خاطئ
وصورّ المعركة كأنها معركة بين الله وبين الإنسان، فهناك
أصالة الإنسان، ويقف بالضد منها أصالة الله، وكان الله في
مقابل الإنسان وهذا خطأ، وهو الذي أحدثت عداءات وهمية
بين الإنسان الذي يعتز بإرادته وفكره وبين الدين الذي
يدعو إلى عبادة الله، فقد جعلوا الله تعالى كأنه يريد أن
يصادر إرادة الإنسان، لذلك فقد خسرت الكنيسة معركتها
أمام الحداثة الداعية إلى أصالة الإنسان واستسلمت الكنيسة
فصار شعارها التقليدي هو المجد والخلود لله في السماء
وفي الأرض السلام. وهكذا أصبح الله معزولاً في عالم
السماء ولا علاقة له بالأرض.



الحركة الإصلاحية..

وانطلاقاً من حديث الإمام الحسين (ع) الذي يقول فيه: (ألا ترونَ الى الحقِ لا يُعملُ بهِ والى الباطلِ لا يُتناهى عنه)^٣، نحاول أن نعرف ما هو وجه التمايز بين الحركة الإصلاحية التي قادها الأنبياء، وقادها الإمام الحسين (ع)، وبين الحركة الإصلاحية التي تقودها الحضارات الأخرى الداعية الى الاصلاح أيضاً، فكل العالم اليوم يتحدث عن الإصلاح؟

فما هو الفرق بين الإصلاحين؟ هل هناك تعاكس في الاتجاه أم وحدة اتجاه؟!

^٣ (المصدر السابق)

وبهذا الخصوص أدعوكم كطلاب علم أن تفتحوا أذهانكم
لمثل هذه الأفاق الحديثة والمعاصرة.

النزعة الإنسانية التي تدعوا لها الفلسفة الحديثة ما هو
المقصود منها؟ نحن أيضاً لدينا نزعة إنسانية، ونؤمن
بالإنسان، فماذا تعني نظرية أصالة الإنسان، ونحن نعتقد
بأن الإنسان مكرم، وهو الأصل لأن الله خلق الناس
أحراراً، ولا نقول بهامشية الإنسان، ونحن أيضاً مع أصالة
الإنسان حيث نرفض ان يتحول الإنسان الى أداة يتسلم
أوامره من غيره، وأنه مجرد آلة، فنحن أيضاً نؤمن
بمرجعية العقل الإنساني، ولهذا فان أول مصدر للتشريع
في الإسلام هو العقل حتى قبل الكتاب والسنة، فـ(أول ما



خَلَقَ اللهُ العَقْلَ، فَقَالَ لَهُ اقبل فأقبل، فقال أدبر فأدبر)٤.

فالإسلام لا يريد ان يتتكر للإنسان ويصادر مرجعية عقله.

ما هو المقصود اذن بـ مبدأ (أصالة الإنسان) من وجهة

نظر الحداثة؟

أصالة الإنسان:

الجواب ان المقصود بـ(أصالة الإنسان)، و(النزعة

الإنسانية)، أو (الفلسفة الذاتية) ثلاثة أمور:

الأمر الأول: لا سلطة فوق الإنسان.

الأمر الثاني: لا قيمة أخلاقية إلّا من خلال منافع الإنسان.

٤ (اصول الكافي، ج ١، باب العقل والجهل ص ٦٧



الأمر الثالث: لا سعادة إلَّا من خلال التوافق مع ذات الإنسان، وهذا هو جوهر الفلسفة الحدائرية اليوم وهو ما تعنيه بأصالة الإنسان.

الأمر الأول: الإنسان هو السلطة العليا في الأرض، ولا توجد سلطة أعلى من الإنسان لا الله، ولا النبي، ولا المجتمع، ولا التقاليد، ولا الأعراف، أو أي تسمية كانت، الفلسفة الحدائرية تقول لا سلطة فوق الإنسان، إذن المجد والخلود لله في السماء والسعادة والعز للإنسان في الأرض، فهما مملكتان مملكة الأرض للإنسان، ومملكة السماء لله.



الأمر الثاني: الفلسفة الحدائثية لا تؤمن بقيم القبيح والحسن

كثوابت كونية، فلا توجد لديها ثوابت أخلاقية كونية، بل إن

كل ما يحقق للإنسان منفعة فهو حسن، وما لا يحقق له

منفعة فهو قبيح، وهذا ينعكس على مجمل الحياة الغربية،

فإذا أرادت مجموعة من الناس السير عراة في شوارع

لندن سنويا فلا مشكلة، حيث يقال نحن لا نعتقد بأية قيمة

أخلاقية إلا ما تحقق للإنسان منفعة أو رغبة شخصية، لا

توجد ثوابت أخلاقية سواء كانت حسنة أو قبيحة، مقولة ان

الصدق حسن والكذب قبيح، الظلم قبيح، والعدل حسن، هذه

المقولات مرفوضة لان معناها افتراض مرجعيات أخرى

فوق الإنسان، وهو أمر ترفضه الحدائثة.



الأمر الثالث: السعادة في النظرية الإسلامية من خلال التوافق مع الحق، {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ}°، أما الفلسفة الحدائثة فانها تقول قد أفلح من توافق مع الأهواء الذاتية، كم تستطيع ان تكسب في الدنيا هذه من إشباع أهوائك الذاتية فأنت سعيد، و عليك الانطلاق بكل نزعاتك التي وُلِدْتَ عليها بعيداً عن كل القيود.

السعادة وفق هذه النظرية الحدائثة، هي من خلال التوافق مع الذات، ولهذا إذا كانت مثلاً رغبة هذه البنت أن تتزوج كلباً، فالسعادة هي ان تتوافق مع ذاتها ورغبتها بعيدا عن أية قيمة اخلاقية.

أصالة الحق: الإسلام يؤمن بمبدأ (أصالة الحق) وهذا
المبدأ ينعكس الى القضايا الثلاث:

أولاً: هناك سلطة فوق الإنسان وهي سلطة الحق، وأمر
الحق يجب ان يكون أمراً نافذاً، والإنسان لا يُمثل الحق
دائماً.

ثانياً: هناك قيم أخلاقية ثابتة قد لا تحقق منافعاً للإنسان
بالمنظور السريع وهي قيم لا تخضع لرغبة الإنسان، بل
الإنسان هو الذي يجب ان يخضع للقيم الأخلاقية.

ثالثاً: السعادة في الفلسفة الحداثية تتحقق من خلال التوافق
مع الذات.



أما في الفلسفة الدينية فأن السعادة تأتي من خلال التوافق مع الحق، إن توافقت مع الحق فأنت سعيد، وإذا لم تتوافق مع الحق فليست بسعيد، والحق يقول هناك معاد، ويوم قيامة، وجنة ونار، وحساب، فإذا توافقت مع الحق فأنت ناجح، وإذا لم تتوافق ولم تعترف بيوم القيامة، والجنة والنار والحساب فانت خاسر {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ* فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ} ^٦.

السعادة في النظرية الإسلامية

سعادة الإنسان وفق النظرية الإسلامية من خلال توافقه مع الحق، وليس من خلال إعراضه عن الحق {وَالْعَصْرِ* إِنَّ

^٦ (سورة الملك: آية ١٠، ١١)



الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ^٧

هؤلاء هم المتوافقون مع الحقيقة {وتواصوا بالحق وتواصوا

بالصبر} الذين انسجموا مع الحقيقة عملياً هؤلاء هم

الفائزون السعداء.

والقرآن الكريم يقول: {وتواصوا بالحق} الحق وليس

التواصي بهوى النفس، هذا هو التقابل بين أصالة الإنسان

وأصالة الحق في هذه المداليل الثلاثة.

الأنبياء والأئمة قادوا حركة إصلاحية للإنسان والإمام

الحسين (ع) نهض بحركة إصلاحية (إنما خرجت لطلب

الإصلاح)^٨ إذن هذه حركة إصلاحية.

^٧ (سورة العصر: آية ١، ٢، ٣)
^٨ (المناقب لابن شهر آشوب، ج ٤، ص ٨٩)



الإسلام يعتقد إن أساس الحركة الإصلاحية هو (الارتباط بالله)، الذي يعني الارتباط بالحق، بعكس الفلسفة الحدائثة التي تقول أن أساس الحركة الإصلاحية هو الارتباط بمنافع الإنسان وما أسموه بالفلسفة النفعية، (البروغماتية).

الحركة الإصلاحية في الأديان أساسها الارتباط بالله تبارك وتعالى، وعلى أساس ذلك كانت القيم التي طرحها الإمام الحسين(ع) هي الارتباط بالله تعالى وليس شيئاً آخر (ليرغب المؤمن في لقاء الله)^٩ هذا هو أساس الحركة الإصلاحية وفق النظرية الإسلامية.

(ألا ترون إلى الحق لا يُعمل به، وإلى الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله، فإني لا أرى الموت إلّا

^٩ (البحار، ج ٤، ص ٣٨١)



سعادة)^{١٠} وهكذا كان يقول (ع): تأكيداً لهذا الهدف الكبير
(ألا ومن كان باذلاً فينا مهجته مؤطناً على لقاء الله نفسه
فليرحل معنا) فالهدف والاساس هو لقاء الله تعالى.

انظروا إلى مفاهيم السعادة عند الإمام الحسين (ع): (إني لا
أرى الموت إلا سعادة) فالتوافق مع الذات الذي تطرحه
الفلسفة الحدائثية ليس من السعادة بشيء، ويقول (لا أرى
الموت إلا سعادة) لأن السعادة في المنظور الديني هي
(التوافق مع الحق) وليس التوافق مع الذات (ليرغب
المؤمن في لقاء الله)، هذا هو أساس الحركة الإصلاحية في
المنظور الديني وفي حركة الإمام الحسين (ع).

^{١٠} (المناقب، ابن شهر اشوب، ج ٤، ص ٦٨)



الإصلاح حركة تبدأ من الذات

في كلمة للإمام علي(ع) يقول فيها: (من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس)^{١١}، فالانطلاقة من نفس الإنسان، (ان تصلح فيما بينك وبين الله تعالى، فالمقياس هو الله وهو الحق).

فحركة الإصلاح تبدأ من نفس الإنسان وطالب العلم إذا أراد الإصلاح في مجتمعه فعليه أولاً البدء بنفسه(من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله بينه وبين الناس).

كلمة أخرى للإمام علي(ع) في هذا السياق، تقول: (إحصد الغلّ من صدر غيرك بقلعه من صدرك)^{١٢} إحصد الغلّ، والأنانية، والحسد، من صدر غيرك لكن كيف؟ تبدأ من

^{١١} (في ظلال نهج البلاغة، ج ٦، ص ٤٧٢، حديث رقم ٤١٧)

^{١٢} (نهج البلاغة، ج ٣، الكلمات القصار للإمام علي(ع))



صدرك بقلعه من صدرك اولاً، كن انساناً صالحاً متواضعاً
بعيداً عن الأنا ستصلح بذلك صدور الاخرين تجاهك. وقد
تقول إن الإمام علي(ع) ألم يعاديه ويقاتله مجموعة كبيرة
من الناس؟ نعم، لكن تلك خارج مسؤوليتك ولا حساب
عليك أن تبدأ باقتلاع الأنانيات من صدرك، وقد تدخل في
حروب ومعارك سياسية وعقائدية، لكن ما زلت على حق
في تلك الحروب فأنت ناجح، عليك ان تعمل بتطهير قلبك
ليشع نورك في قلوب الآخرين. وسوف تفتح لك آفاق
كبيرة، وسيبقى هناك أناس لا يريد الله هداهم {إِنَّكَ لَأ تَهْدِي
مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} ^{١٣} الذي لا يريد الله
هدايته يبقى حاقداً عليك لأنه حاقد على الله تعالى، أمّا



الناس الطيبون أصحاب الفطرة الطيبة فانهم سوف يندفعون
إليك.

هذا ما يهمنا أيها الإخوة طلبة العلوم الدينية، أن مبدأ
الحركة الإصلاحية ينطلق من نفس الإنسان وفي محرم
الحرام علينا أن نتعلم كيف نصلح أنفسنا.

راقب كلمات الإمام الحسين(ع) في محرم الحرام لا تجد
فيها إلا الإصلاح الذاتي والتعلم الذاتي والظهر الذاتي، فهو
مع العيال بشكل من النقاء والطهارة، ومع الأصحاب بشكل
آخر من الخلق السامي، وهو كذلك حتى مع العدو، وحتى
مع الحيوان، وفي حال المصيبة، ولا يوجد خطأ واحد في



كل مسيرته من اولها الى آخرها وفي كل الظروف
الصعبة ومع كل الاطراف.

سعد بن عبادة في فتح مكة دخل وقد غلبته مشاعر النصر
فقال (اليوم يوم الملحمة اليوم تسبى الحرمه)^{١٤} فالإنسان
لحظة العنفوان قد يفقد المقاييس الصحيحة لكن
الرسول(ص) رفض ذلك وأعطى شعاراً آخر (اليوم يوم
المرحمة، اليوم تحمى الحرمة) نحن حتى في ساعة النصر
يجب ان لا نحيد عن الحق حتى في شعاراتنا، وحديثنا،
وأخلاقنا، وداخل أعماقنا، فحين دخل رسول(ص) مكة
دخلها متواضعاً مطأطأ رأسه كأنه هو المغلوب!!

^{١٤} (سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٣٠، عن مجمع الزوائد، ج ٦/ ١٦٩)



هذا يحتاج الى قدرة، ورقابة كبيرة للنفس، لكي لا تخرج
منا كلمة سيئة حتى مع العدو، ويجب أن أتحدث مع العدو
ليس بخلاف المقاييس الأخلاقية مع العلم أنه عدو، ولكن
الله يراني كيف أتعامل، هذا هو النقاء العظيم الذي لاحظناه
في حركة الامام الحسين(ع).

الحسين(ع) مثلاً وهو في قمة العطش حين وضع أقدامه
في الفرات فمدَّ الفرس رأسه ليشرب والحسين(ع) مدَّ يده
ليشرب فأنسحب الحسين(ع) كما في القصة المعروفة،
وقال وهو يخاطب الفرس: (أنا عطشان وأنت عطشان لا
والله لا اشرب حتى تشرب)^{١٥} هذا في أي مقياس يدخل؟
هذا النقاء العظيم في التعامل مع حيوان!! والحسين(ع)

^{١٥} (بحار الانوار، ج ٤، ص ٥٠)

يتقطع قلبه عطشا لكن لديه شيء آخر، وهو نقاء النفس
قبل ما هو استحقاق الأعداء وغيرهم، يجب ان لا نخطأ
اخلاقيا حتى في شرب الماء، ولهذا أصبح اسم الإمام
الحسين(ع) مكتوباً على ساق العرش، أي ساق الحقيقة
الكونية الكبرى، والعرش هو رمز للقدرة التي تحكم
الكون، مكتوب على العرش (الحسين مصباح الهدى
وسفينة النجاة) كيف كان ذلك؟ نعم تأملوا في مواقف
الحسين(ع) تجدون كيف انه مصباح الهدى، ونموذج
الطهر والنقاء وبأعلى المستويات بما يستحق أن يخلد في
ساق العرش.



من أجل ذلك أصبح نور الحسين (ع) يتوهج، لأن نوره
نقي يصل لأولئك القادرين على استقبال هذا النور، يوجد
ناس ليس لديهم استقبال لهذا النور فهم صمّ بكم عمي.

لاحظوا العباس (ع) في كربلاء، أين هي عظمته؟ ليس في
بطولته البدنية فيوجد أبطال كثيرون في العالم، لكن
العباس (ع) الذي أراد أن يشرب الماء فتذكر عطش
الحسين (ع) فرمى الماء من يديه، وهذا الموقف لا يصنعه
أحد من البشر إلا إذا بلغ مرتبة عالية من الكمال، مع انه
لو كان يسأل الحسين (ع) ، لسمح له بالشرب، ولو كان
يسأل الأطفال لما مانعوا بأن يشرب، لكنه لا يشرب، وبعد



ذلك يُقتل عطشاناً فيا له من نقاء عظيم، ويا له من كمال
إنساني عظيم.

طالب العلم يجب أن يتعلم إذا أراد أن يصبح مرشداً، أو
واعظاً، مؤثراً في قلب السامع، يجب أن يراقب نقاءه
وكلماته.

هذا ما نتعلمه من سيرة الحسين (ع) ونحن نقف على أبواب
محرم الحرام والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

